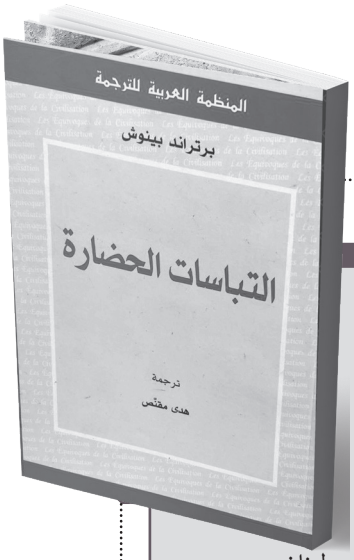

«إلتباسات الحضارة» لـ برتراند بينوش

الصورة القلقة للإنسان الحديث

هاشمية علي رسلان
باحثة في علم الاجتماع السياسي – لبنان

على غير ما هو مألوف لدى فلاسفة التاريخ، يعرض برتراند بينوش في كتابه "إلتباسات الحضارة" ما يدنو من هندسة معرفية مستحدثة لاستبطان ماهية الحضارات وهوياتها التاريخية.

يسعى بينوش وهو أستاذ تاريخ الفلسفة الحديثة في جامعة السوربون عبر هذا الكتاب، الى الدخول على مفهوم الحضارة دخول المتأمل. وليس اختياره لعنوان كتابه على هذا النحو، إلا رغبة منه – في ما يبدو – بإحداث ضربٍ من الشَغَبِ المعرفي حيال مفهوم بات يُنظر اليه كمسلّمة لا تحتاج الى تعريف.

منذ البداية تتناهى الى القارئ مساءلات عن السبب الذي حمل الكاتب ليؤسس مقاربته على إشكالية "الإلتباس". لكأن الذين سبقوه في تناول الحضارة كظاهرة إنسانيّة سارية في التاريخ، لم يفلحوا في بيان مغزاها، وإنما زادوها غموضاً على غموض.

ولعلها مسألة جد حيوية تلك التي سعى المؤلف اليها. ذلك بأنه قصد مقاربتها واعادة تعريفها في اطار عملية تأصيل معرفي أعمق

علم المبدأ LMOLMABDAA
العدد التجريبي الأول . 1443هـ . ربيع 2022م

غوراً. عنينا بها "مسألة الالتباس" التي أرادها بينوش نعتاً إشكالياً للحضارات الانسانية، وهي تواصل حيواتها ضمن جدلية الاتصال والانفصال والتداخل.

ستشير ناقلة الكتاب الى العربية هدى مقنّص الى ذلك، لمّا رأت - استناداً الى قول الوزير الفرنسي ذي الهوى اليميني في عهد ساركوزي كلود غيان (Claude Guéant) - "إن الحضارات كلها لا تتساوى". ثم أتْبَعَت ذلك بالاشارة الى ما قررّه عالم الاثنولوجيا كلود ليفي ستراوس لجهة تبديد كل محاولات تصنيف الحضارات تصنيفاً تراتبياً. وهو ما يعني إخفاق مجمل الأبنية الفكرية التي ابتنت مناهجها على التصنيف التراتبي لفهم العمليات الحضارية بما هي تعاقب طولي في مسار التاريخ.

وفي مرحلة معرفية متأخرة سيأتي جان كازانوفا ليعرّف الحضارة على نحو يتوازى مع ما سيقاربه بينوش في هذا المضمار: فقد ورد عنه قوله في موسوعة يوينفرساليس ما يلي:

"تستخدم كلمة حضارة بمعان شديدة التنوع وكثيراً ما تكون غير دقيقة بالكامل. وبشكل عام، يمكن تصنيف المعاني التي تنسب الى هذه الكلمة بشكل واضح او ضمني الى فئات ثلاث:

أولاً، في اللغة الأكثر شيوعاً، يرتبط مصطلح حضارة بحكم قيمة، ويصف بشكل إيجابي المجتمعات التي تستخدم هذه الكلمة لوصف ذاتها. وهو يفترض بالتالي وفي المقابل وجود شعوب غير متحضرة او متوحشة.

ثانياً، الحضارة هي مظهر معين من الحياة الاجتماعية. ثمة مظاهر في الحياة الجماعية يمكن تسميتها بالظواهر الحضارية او تسمى، في حال تجسدت ضمن مؤسسات ونتاجات، أعمالاً حضارية، في حين أن اخرى لا تستحق بالطبع ان تنضم الى هذه الفئة.

ثالثاً: وأخيراً، تنطبق كلمة "حضارة" على مجموعة من الشعوب أو المجتمعات. وهكذا، الى جانب الحضارة التي هي درجة عالية من التطور أو مجموعة من السمات المميزة، ثمة حضارات متنوعة تمتلك هذه السمات وتستقي منها شخصية خاصة تعطيها مكانة محددة في التاريخ أو بين مجموع الشعوب في لحظة معينة. يرتبط هذا المعنى الثالث بالتالي مع واحد من المعنيين السابقين فيجعله مفهوماً عملانياً في اطار تحليل الواقع الاجتماعي".(المقدمة - ص ١٢).

"الالتباس" بما هو قضية فلسفية

سوف يلاحظ قارئ الكتاب، بمقالاته وفصوله المتنوعة، أن الذين قاربوا "التباسات الحضارة" من المهتمين، كانوا محمولين على همٍّ فلسفي من الدرجة الاولى. وما ذاك إلا لأن القضية التي هم بصددها تقع في صميم الفلسفة وإجراءاتها المعرفية.

في هذا المنحى بالذات، نلفت الى ما لاحظه فيلسوف الأخلاق الألماني ألبرت اشفيتسر حيث حرص على البحث في ماهية الحضارة من قبل أن يبحث عن هوية حضارة ما. وبسبب من حرصه ذاك، سيتبيّن له في ختام طوافه الفلسفي ان الحضارة في جوهرها هي قضية أخلاقية. ذلك يعني أن العامل الأخلاقي هو أمر جوهري لمعرفة ماهية الحضارة، وبالتالي للحكم على كل حضارة بعينها. وفي سياق تسويغه لهذا الحكم القيمي رأى أشفيتسر أن الأعمال المبتكرة والفنية والعقلية والمادية لا تكشف عن آثارها الكاملة الحقيقية إلا إذا استندت الحضارة في بقائها ونمائها إلى استعداد نفسي يكون في أصله أخلاقياً حقاً. ذلك أن الانسان لن تكون له قيمة حقيقية بوصفه شخصية انسانية إلا من خلال كفاحه ليكون ذا خلق وخِلالٍ حسنة. وتحت تأثير المعتقدات الأخلاقية وحدها تكونت مختلف العلاقات في المجتمع البشري على نحو يسمح للأفراد والشعوب أن تنمو وتتطور بطريقة مثالية. وأما إذا أعوز الأساس الأخلاقي فلسوف تتداعى الحضارة وتتهافت، حتى لو كانت العوامل العقلية والخلاقة، أيا كانت قوة طبيعتها، تفعل فعلها في اتجاهات أخرى. (اشفيتسر – فلسفة الحضارة – ترجمة عبد الرحمن بدوي – دار الأندلس – ١٩٩٧ – ص ٤).

وحدة النص في تعدده

بدت فلسفة التاريخ في أبحاث الكتاب ظاهرة على نحو بيّن. فلم يكد السؤال الفلسفي يغيب حتى يرجع إلينا بأشكال وصيغ وظهورات مختلفة. والسبب في هذا عائد أولاً، الى تعدد النصوص التي ساهمت في بيان العناصر المولدة للإلتباس الحضاري. وثانياً الى عامل منهجي مؤداه، أن أي درس لأي من أركان العمران الإنساني، هو درس منبعثٌ من همٍّ فلسفي أولاً وآخراً.

وسيظهر لنا من مطالعتنا لأعمال المشاركين ما تم بذله من جهود لتظهير إشكالية الالتباس. وهي جهود تنطلق من تاريخ الكلمة (المصطلح) ونشوئها، الى المفاهيم التي تحيل تلك الكلمة، اليها عند مجموعة من الفلاسفة والمفكرين الاوروبيين منذ القرن الثامن عشر وحتى بدايات القرن العشرين.

لا يكتفي منسق العمل برتراند بينوش بتقديم الدراسات الواردة في الكتاب وبيان مضامينها، بل هو يقدم تحليلاً فلسفياً لـ "التباسات" الحضارة، من النواحي الدلالية والوظيفية. وإذ يبيِّن معناها ما بين العامين ١٧٧١ و١٨٠١، يظهر له كم أن استعمالها كان نادراً في النصف الثاني من القرن الثامن عشر في فرنسا. وما ذاك إلا لانها لم تكن تدل الى مفهوم معين ثم لتأتي ملبية حاجة نظرية محددة، وقد كان الاسكتلنديون – حسب بينوش – من أهم منظري الحضارة التي اعتبرت مساوية لتاريخ الجنس البشري فتلاقت مع فكرة "قابلية التحسين" على اعتبار انها تشكل آلية نموذجية تنبعث منها الأمم لتخرج من حالة الهمجية(ص١١).

قد يكون تعدد المقاربات من الفضائل المعرفية لهذا الكتاب. فعلى الرغم من الزوايا والخلفيات المتكثِّرة، بل المتباينة بين باحث وآخر، فقد بدت لنا النصوص على الجملة وحدة قولية بامتياز. الكل اكدوا على الالتباس كحالة واقعية تلازم الحضارة في ولادتها ونشوئها والكلمات التي عُرِّفت بها. ولقد بيّن بينوش هذه اللاَّزمة حين رأى ان الفيلسوف اذا أراد ان "يتفلسف" وجب عليه ان يفعل هذا على التضاد مع الكلمة الرئيسة التي يعمل عليها كموضوع. وذلك إما باعادة تعريفها بحسب معنى محدد، وأما باستبعادها ضمناً، أو برفضها بشكل واضح. وهنا يتفق المؤرخون – كما يقول بينوش – على ان الحضارة باتت تُعرّف منذ بدايات القرن التاسع عشر، تحت "شعار العصر" (Schlagwort, Catchword of the Time, Allerweltsbegriff) ثم يعطي مثلاً على رؤيته بما سبق وقدمه شارل فورييه حيال الكيفيات التي ينبغي الاستعانة بها لمقاربة الأطروحة الحضارية. ثم ينقل عن فورييه قوله التالي: حيث تشكل شهادة فورييه (Fourier) في هذا الفضاء الإشكالي مثالاً بليغاً يقول:

"بما أني لم أكن أقيم أي علاقة مع اي تيار علمي، قررت أن أطبق الشك بأفكار الجميع من دون تمييز وأن أشك حتى بالأفكار التي كانت تحظى بقبول شامل، وذلك على غرار الحضارة التي هي معبود كل التيارات الفلسفية والتي نعتقد أننا نرى فيها غاية الكمال. ثم يتساءل: ولكن هل من شيء أقل كمالاً من هذه الحضارة التي تجرّ وراءها كل المصائب؟ هل من شيء مشكوك في أمره اكثر من ضرورتها وديمومتها المستقبلية؟[...] يضيف: يجب إذا ان نطبق الشك على الحضارة، الشك في ضرورتها وفي امتيازها وفي ديمومتها. هذه مشكلات لا يجرؤ الفلاسفة على طرحها، لأنهم حينما يشكُّون في الحضارة سيجعلون نظرياتهم المتصلة جميعها بها عرضة للشك في بطلانها وستسقط بسقوط الحضارة، لحظة يتم العثور على نظام اجتماعي أفضل لاستبدالها؟(ص ٣٢).

إذا كان لنا ان نستدل على ثراء التنوع في مقاربة أطروحة الالتباس الحضاري، فسنذكر على سبيل المثال ما ذهبت اليه مساهمة ميشال ماليرب في الكتاب، وجاءت تحت عنوان "بعض الاعتبارات حول فكرة الحضارة". في هذا البحث مسعى لعقد مقارنة بين نظريتين تأسيسيتين لكل من هيوم وفيرغسون.

يلاحظ الكاتب أن ثمة تبايناً بين هاتين النظريتين. ففي حين يُعرض هيوم عن تعريف الحضارة (Civilization)، يستعملها فيرغسون كمعادل للمدنية في مقالة مشهورة له حول تاريخ المجتمع المدني. لكن المؤكد حسب الكاتب ان قصة نشوء أي مفهوم هي قصة مثيرة ويصعب سردها. فما من إثبات مادي، أولاً، إلا ظهور الكلمة في المعجم، بيد أن هذا الحدث الذي يؤرخ لما قبله ولما بعده يظل صعب التقويم. فمن الممكن على الدوام القول ان المفهوم كان موجوداً من قبل على الرغم من غياب الكلمة، أو على العكس، أن الكلمة الجديدة لا تزال تحتفظ بشيء من

المعنى القديم. وفي هذه الحالة يُطلق العنان لقدرة المؤرخ على إعادة التركيب لديه، ولكن على حساب الحدث نفسه. يضيف: "ثم إننا لا نستطيع تجاهل دور الظروف او الطباع. وإذا ما أردنا الاكتفاء بالكاتبين موضع اهتمامنا، يجدر بنا أن نتذكر العناية التي كان يضعها هيوم في طرد كل "المصطلحات الاسكتلندية" من أعماله، وفي الكتابة بلغة متكلفة في حين أن فيرغسون لا يبدو حاملاً الهموم نفسها من دون الوصول الى درجة التحدث بلغة جديدة. ينتهي الى القول: "ينبغي إذا عدم الرغبة في كتابة التاريخ بسرعة كبيرة".(ص ٣٠٠).

لكن لنعد هنا الى نشأة المفهوم واستعمالاته:

من الملحوظ ان مصطلح (Civilization) يرد ثلاث مرات في "موسوعة" ديدرو ودالامبير: المرة الاولى في مقالة (Peine, vol, XIIm paru en 1965) بالمعنى القانوني اي تحويل مادة جرمية الى مادة مدنية؛ ومرة في مقالة (Vie, Vol, XVII, paru en 1765)، الصادرة في العام ١٧٦٥ حيث يكتب جوكور (Jaucourt) قائلاً: "[بلوتارك] يجعلني اتحدث بمتعة في عزلتي المرحة والسلمية والمعزولة مع هؤلاء الموتى المشهورين، هؤلاء الحكماء الموقرون كما الآلهة من العصور القديمة، أصحاب الاعمال الخيرة مثلها، أبطال وُهِبوا الى الانسانية من اجل تقدم الفنون والسلام والحضارة"، والمرة الثالثة في مقالة Zone من المجلد ذاته حيث تتكرر الجملة. (ص ٣٠٠)

وإذاً، تبدو كلمة (Civilization) (حضارة) غائبة، عند هيوم. لكن يجب أن نتذكر طريقة عمل الفيلسوف، فهو لا يكتفي بعدم الاهتمام بادخال المولدات من الكلام، بل يعتبر نفسه صاحب علم في الطبيعة الانسانية وتشكيكي صعب المراس في الوقت نفسه، وبالتالي فهو يفضل الوقائع على الفرضيات والحجج على المفاهيم. أما لغته فتبغي أن تكون لغة فلسفية مهذبة ومطبوعة بمودة ثقافية.

بين الابستمولوجي والايديولوجي

وهكذا استقبلت صفة (civilized) (متحضر) بشكل ممتاز وهي تظهر مرات عدة في المقالات. وفي التحقيق حول مبادئ علم الأخلاق (Enquête sur les pricipes de la morale) جاءت كنقيض لـ (همجي) (barbarous). وبحسب "التحقيق". المشار إليه، نجدنا وجهة نظر ثلاثية: فإما أن نعتبر العلاقة بين الأمم المتحضرة والأمم الهمجية التي لا تحترم حتى قوانين الحرب، فتصير الاولى في حل من اي التزام (TB ١٦ MM ٦٠)؛ وإما أن نلاحظ أن سجناء الحرب يعاملون في الأمم المتحضرة بطريقة انسانية (EPM,TB,MM60) وبحسب مرتبتهم، وإما أن نقارن اخيراً بين ما يجري في داخل الأمم المتحضرة مع ما يجري في الأمم الهمجية، حيث إن في الاولى جهداً دائماً للابتعاد عن أية اعتباطية، واي تحيز في قرارات العدالة والملكية (TB 18, MM 159). من هنا يمكن ان نستنبط فورا ان "الحضارة" متصلة بعلاقات البشر بين بعضهم بعضا وهذه العلاقات

قد تؤخذ على مستويين: مستوى تأثير مشاعر الانسانية الطبيعية في وضعيات الحرب، حين تغيب قوانين العدالة، والمستوى الاعلى الخاص بتأثير قوانين العدالة نفسها التي تُحِلُّ محل حكم البشر الاعتباطي حكم القواعد العامة. والحالة التي يجدر التوقف عندها هي السلوك الذي يجب اعتماده ازاء المتوحشين في المستعمرات، فهل يملك الاوروبيون المتحضرون، بسبب تفوقهم على الهنود الهمجيين، الحق في أن يرفضوا كل واجبات العدالة والشروط الانسانية في طريقة معاملتهم لهم" (TB 18, MM 63).

لم يغب عن الذين تصدوا لجلاء الاشكاليات المعرفية في هذا الشأن بيان الفارق بين الرؤية الفلسفية المحايدةوالرؤية الإيديولوجية المتحيِّزة.

والإشارات بيّنه في معالجات الكتاب لجهة الالتباس الذي تثيره تناقضات مناهج النظر الى الحضارات. إذ بين منهج الفيلسوف ومنهج الداعية بون شاسع في تعريف وتعيين ماهية الحضارات وهويتها. ففيما ينبغي على الأول ان يجعل المعنى والمصطلح منزَّهين من التحيُّز، يمضي المتكلم او الداعية الى توظيف المصطلح طبقاً لقبلياته القيمية ومعياريته العقائدية.

قد يكون هذا الوجه من الالتباس هو أحد أهم العناصر المولّدة للاختلاف في تحديد ماهية الحضارة. فضلاً عن فهم هويتها التاريخية.

وما من شك بإن الرؤية الايديولوجية هي التي ترسم الخريطة المعرفية للكتل الحضارية، منذ بدء التاريخ والى يومنا هذا، ذلك بأن التحيّز هو من طبع الكائن البشري، ولا يسع الحكماء والعرفاء في حال كهذا، سوى بذل المجهود العقلاني الأخلاقي لاحتواء القدر المتيسّر من تداعيات الاحتدام وشروره. وأما ما يتصل بالكتاب، فإن لنا مما انتهى اليه بينوش في المقدمة ما يوجز بكلمات قصار الغاية من "العمل كله"

إنها "التباسات في المعنى والوظيفة.. ولو أردنا أن نكون عقلاء نقول: ان الحضارة لا يمكن ان يحكى عنها بالمفرد"...

- برتراند بينوش
- التباسات الحضارة
- ترجمة: هدى مقنّص
- اصدار المنظمة العربية للترجمة - بيروت ٢٠١٣.
- توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية.